1

مشاهد الحياة اليومية

كيف يكون المرء إيرانيا؟ هذا هو السؤال الذي طرحته على نفسي وأنا أتابع هذا المشهد الصغير عند حلاق الحي الذي تقع فيه السفارة وتعلوه لافتة كتب عليها بالفارسية كلمة: ماتان وهي تعني «الوقور» ولا نتصور في بلادنا أن يدعى صالون حلاقة، حتى ولو كان للرجال بمثل هذا الاسم إنه صالون حلاقة على الطراز القديم يحيط به بائع خضار ومحل لبيع المستحضرات الصحية، أرض مبلطة، عاملا حلاقة، كرسيا حلاقة قبالة رف طويل تنتصب فوقها مرآة كبيرة، أما الجدار المقابل فتصطف أمامه أربع أرائك بوجه قطني أزغب، و مشجب، وتلفاز معلق في إحدى الزوايا، ومغسلة خلف ستارة يستخدمها زبائن نادرون جدا يرغبون بغسل رؤوسهم بعد الحلاقة، وهناك أيضا زجاجات العطور المعتادة وذات الرؤوس الشعرية ورخيصة الثمن.

في المشهد أب يطلب حلاقة رأس ابنه البالغ من العمر اثني عشر عاماً. وعند انتهاء الجلسة، يسأل الأب الحلاق كم يترتب عليه، فيجيبه هذا بحسب العادة «هذا ليس من قيمتك»، يقصد أن يقول «إن الخدمة التي قدمتها لك لا تستحق أية مكافأة» وفي إيران هذا ما يجيبك به مثلا عامل محطة الوقود، على الأقل مرة واحدة، وأنت تجهز نفسك لتدفع له.

عندها يخرج الأب محفظة نقوده المحشوة في داخلها برزمة سميكة من الأوراق النقدية من ذوات عشرة آلاف ريال، وتساوي الورقة يورو واحد، وتساوي هذه الرزمة راتب شهر واحد، ويفتح الرجل المحفظة، ويمد يده بحركة واسعة إلى الحلاق قائلا له «خذ ما تريد» ويقوم هذا الأخير بعد حركة رفض ضعيفة، وقد جوبه بهجوم جديد من الزبون، بمد أصابعه ويسحب من الرزمة ورقة واحدة، وهو السعر المعتاد لقص شعر طفل، وكان كلاهما يعرف أن المقايضة سوف تنتهي بهذا الشكل.

هذا النوع من المشاهد الذي يذكرنا بالمشاهد الساخرة من الطراز الأسباني، نراه ونعيشه باستمرار، جاعلاً من الحياة اليومية في إيران ملهاة دائمة أو بالأحرى نوعا من الكوميديا الإيطالية التقليدية حيث تتنافس فيها الشخصيات، إلا فيما ندر، بتبادل عبارات المودة والحب. فكل امرئ يعلن في كل لحظة ومع انعطاف كل عبارة أنه جاهز للتضحية بنفسه من أجلك، ويمكن مثلا أن يحدثوك عن وفاة شخص ما مجهول تماما منك ومات في فراشه بشكل طبيعي فتسمعهم يقولون «لقد ضحت بحياتها من أجلك أعطتك عمرها». وقد حدثني صديق لي زار أحد السجون ، وبشكل أكثر تحديدا جناح المحكومين بالإعدام، إن هؤلاء المحكومين عندما كان يقول لهم من بعيد «صباح الخير»، كانوا يضعون أيديهم على قلوبهم دون أن يفوتهم قول عبارة الترحيب التقليدية في إيران: «روحي فداك».

أيمكن لنا أن نلاحظ ونحن نغادر بعض الاهتمام من مضيفنا؟ إنه يعبر عن سعادته لزيارتك وكأنك منحته بركة الحج فيدعو لك بالقول «أدام الله ظلك»، يعني بذلك أنه يأمل أن تكون دائما سالما، وإيران هي أيضاً البلاد التي يقولون فيها «سيدتي» للفتاة الشابة، كما يقول فيها سائس الخيل لمهره المدللة «سيدتي».

أما شاخصات المرور فهي إلى حد ما في غير موضعها، وكل سائر يستدل على طريقه بسؤال الناس، هذا السؤال الذي يخلق فرصا جديدة للتواصل ويدرك السائق أن عليه ألا يتقيد بحرفية لوحات المرور، وقد أضعت مرة طريقي عند خروجي من طهران، فسألت عن الطريق إلى مدينة «قم». كان الجواب الذي سمعته: «تابع طريقك بشكل مستقيم، وسوف تصل بعد قليل إلى مفترق طرق، وهناك تصادفك لوحة تشير إلى اتجاه قم، تأكد ألا تتبعها، خذ الاتجاه الآخر...إلخ». وكانت نصيحة الرجل في محلها.

وبشكل خاص، إذا كانت الطريق مجهولة لديك، فقد يعرض ذلك المجهول عليك أن يرافقك، ويتردد المرء أن يجعل أشخاصا بسحنة شاحبة يصعدون إلى سيارته، وقد اعتاد الإيرانيون أن يطلقوا لحاهم أياما عديدة كي يبرزوا بشكل رئيسي تقواهم عن طريق قلة الاهتمام بالعناية بمظهرهم وببساطة أكثر ليكون الواحد منهم مثل الآخرين، وفي الواقع،هؤلاء المرافقون الذين يحملون رؤوسا كرؤوس القراصنة والذين يتساءل المرء إذا هم لن يقودوك إلى طريق مسدود ومهجور كي يخنقوك، يظهرون لك وبسرعة أنهم الأدلاء الأكثر عناية بك والذين يرفض معظمهم في النهاية كل مكافأة، كل إكرامية.

وفي إيران، يقولون غالبا إن رجال الشرطة فاسدون، وهذا صحيح بالنسبة لعدد منهم، إنما في مدينة صغيرة وصلت إليها مع زوجتي دون أن نفصح عن هويتنا، رأيت واحدا منهم قد ذهب ليحضر دراجته النارية كي يقودنا إلى فندقنا، وفي اللحظة التي كنا سننفصل فيها، بدا من الرجل تراجع عندما لاحظ أني وضعت يدي في جيب سترتي، إذ خشي أن أخرج بعض النقود. فأمسكت به وطمأنته أني سأعطيه بطاقتي الشخصية للذكرى.

وبنسبة واحد من اثنين، يعبر الشخص المجهول الذي يدلك على طريقك عن حيرته في معرفة ما إذا كان يستطيع أن يقدم لك خدمة أخرى، كما يدعوك لتناول الشاي في بيته. وهذا تقريبا أمر مؤكد عندما تكون في الريف، وأكثر من مؤكد عندما تكون في الصحراء، وإذا هبط الليل، فهو يدعوك للمبيت عنده، وعندما تكون في نزهة قصيرة وتمر أمام متنزهين يتناولون طعامهم، فإنهم يدعونك بشكل طبيعي كي تشاطرهم طعامهم، بالطبع تجري العادة أن ترفض ذلك، على الأقل مرة واحدة، وإذا حدث أن قبلت بالصدفة دعوتهم، فإن فرح مضيفيك غير المنتظرين، هو فرح صادق.

ومازلت أذكر خادم جامع في إحدى القرى، الذي ذهبنا نبحث عنه في بيته ليفتح لنا باب المسجد، وعندما انتهت الزيارة قدمت له إكرامية صغيرة، فرفضها بإصرار، وأصريت، وانتهى الأمر بأن قبلها على شرط أن نرافقه إلى بيته لتناول الشاي، وقد فعلنا ذلك حيث جلسنا تحت سقف من الآجر فوق سطح حظيرة البقر، في غرفة استقبال نظافتها لا تضاهى، وفرشت أرض الغرفة بسجادة ووضعت على امتداد الجدران وسائد للاتكاء، وكان هناك جهاز تلفاز بالطبع، وقدمت لنا حلويات لا يمكن مقاومتها، حضرت كما حضرت زوجته من حيث لا ندري.

وفي عرض الصحراء، توقفت مع زوجتي بالقرب من أطلال قصر طيني جميل، بجانب غدير يتدفق من نبع في مكان ما، ومر بنا فلاح يمتطي دراجة صغيرة، توقف واقترب منا يدفعه الفضول، وقد دعوناه ليشاركنا طعامنا تحت ظل بعض الأشجار، وعندما جلس، لم يتوجه مباشرة بالكلام إلى زوجتي، فحديثه لها مباشرة يعني عدم الاحترام، والتفت إلي مستخدما

التعبير القديم الذي تلاشى منذ زمن بعيد ولكنه يعبر عن الاختلاف والقرب في آن واحد: «كيف حال والدتنا؟ هل هي سعيدة في بلادنا؟...إلخ».

وفي عمق الشتاء، وعند فلاحين آخرين في الجبل، جلسنا في غرفة الاستقبال، وكانت مجهزة بمنقل جمر في وسط الغرفة تحت طاولة فوقها غطاء عريض بحيث يستطيع كل فرد ان يدس يديه وقدميه تحته طلبا للدفء. بعد الشاي وبضع حبات من السكاكر تبادل الرجل وزوجته بضع كلمات بصوت منخفض، ثم التفت إلينا وقال معتذراً: لا بد أنكما جائعان اعذرونا، فليس عندنا ما نقدمه لكم.. هل ترغبون ببعض البيض؟ لقد قدرنا حجم التضحية التي يقدمها الرجل، فاعتذرنا شاكرين.

يعرف كل إيراني حسب إمكانياته، وأحيانا أبعد منها، كيف يعيش المتعة وهو يعرض عليك أشكال كرمه، وبعيدا عن هذه المشاهد الريفية قام أحد السفراء وأنا شخصيا بالمشاركة في حفل إفطار كبير في الأول من رمضان، دعانا إليه أبناء إحدى العائلات العريقة، وقد حاول صديقي أن يتذوق كل الأطباق العديدة التي كانت تتناثر فوق المائدة وقال لي هامسا: معهم الحق أن يقولوا إن الأول من رمضان هو اليوم الأصعب في شهر الصيام». ولكن الوصول إلى التعبير عن هذا الكرم يستدعي اجتياز الخط الفاصل بين «الداخل» و «الخارج»، بين مسرح الحياة الاجتماعية وبين الحياة الحميمية العائلية، وكي تجتاز هذا الخط لا بد لك من حماية من قوانين الجمهورية الإسلامية.

في بعض المناسبات يجري فعلا إزالة الحاجز بين الداخل والخارج، ومن هذه المناسبات الأعراس، وإذا كان البيت صغيرا جدا على الاحتفال،

وهذا هو الأمر الشائع، يقوم الإيرانيون، كما هي الحال في بلدان أخرى باستئجار صالة أفراح مناسبة، وداخل هذا المكان الخاص والعام في آن واحد، توضع القوانين الإسلامية ولليلة واحدة فقط بين قوسين. في الصالة يلتقي الرجال والنساء، يتمايلون على أنغام الموسيقى، وتلقي النساء بالحجاب جانبا فيظهرن بكامل زينتهن وتبرجهن، أما الرجال، فتراهم قد حلقوا لحاهم، وارتدوا ربطة العنق ما يشير إلى انتمائهم للغرب، وحتى في الأوساط التقليدية ترتدي العروس ثوبا أبيض ضيق عند الخاصرة بحيث يبرز معه الصدر ويستقيم الظهر وينسدل عليه وشاح من التول، أما الزوج فلباس الاحتفال لديه هو «السموكينج» مع صدرية وعقدة البابيون بدل ربطة العنق. ماذا أقول؟ إن صورة العريس والعروس لا يمكن أن تجد مثيلا لها في أي استديو في العالم، ويجري تصوير الحفل بغزارة لتعرض الأفلام فيما بعد على جهاز الـDVD ، إنما في عرض عائلي فقط.

وتشاهد نفس هذا الجو في الاحتفالات الدينية للطائفة اليهودية التي تعد حاليا بضع مئات الألوف، ويمثلها في البرلمان نائب واحد، شأنها في ذلك شأن الطائفة الزرادشتية، وطوائف المسيحيين السريان وأرمن الشمال وأرمن الجنوب، وهذا يعني أن خمسة نواب يمثلون الأقليات الدينية في البرلمان. يحضر في الاحتفال الديني اليهودي العديد من الأصدقاء المسلمين، ويتخلل الاحتفال عشاء ورقص لا يكاد يتوقف، وعادة ما يكون الاحتفال كبيراً، وهذا على الأقل ما شاهدته في الاحتفال الذي دعينا إليه ذات مرة، استقبلتنا عائلة ربما كانت تملك إمكانيات متوسطة ولكنها آثرت أن تلعب دورها على شاكلة العائلة المالكة أيام فرساي. وتتصرف وفق إيقاع وكأنها في حفل باليه، كان كل فرد من أفرادها يتكلم

وفق طريقة منظمة، ويقدم عبارات الإطراء والترحيب في اللحظة المناسبة والتي يجب أن تقال بشكل تبدو فيه طبيعية جداً، وهذا ينطبق بشكل خاص على الصبية الصغيرة التي أقيم الاحتفال من أجلها لأنها اجتازت عتبة الطفولة إلى البلوغ، كانت الصبية تتكلم وتتحرك وترقص وكأنها أميرة.

بالتأكيد، من حين إلى آخر، وفي فترات التوتر السياسي وحملات الدعوة للرجوع إلى القيم الإسلامية، تبرز ضرورة اتخاذ الاحتياطات في هذه الأجواء الحميمة، من الممكن أن يقوم أعضاء الباسيج وهم أفراد من شباب الميليشيات التابعة للنظام والذين يرافقهم عادة أفراد من الشرطة ويراقبونهم في نفس الوقت، بالدخول عنوة إلى أماكن تجذبهم إليها أنوار مشعة أو أصوات عالية، فيعتقلون النساء السافرات أو المرتديات ثيابا قصيرة، ثم يسكبون وبسرعة زجاجات الخمر في البلاليع، كما يقومون باعتقال الرجال.

وتمضي ليلة وربما ليالٍ وأيام ببقى فيها المعتقلون والمعتقلات في مراكز الشرطة، ثم تأتي أوامر بمثولهم أمام قاض بعيد عن المركز، وتصدر أحكام بالغرامات، وأوامر بالجلد، أنها تجارب مريرة تخلف في النفس جروحا يخرج المرء منها إما مرتدعا مقرراً ألا يعرض نفسه لهذه الإخطار مرة أخرى، وإما ممتلئا بغضب عميق وكبير وقد قرر أ لا يسمح بأن يتعرض للإهانة مرة أخرى، من الناحية الإحصائية، على كل حال، هذه حوادث استثنائية ولكنها لا تمنع أبدا التطور الزاحف للأخلاق نحو أنماط حياة يستطيع كل فرد أن يتشربها وهو يتابع عبر التلفزيون فضائيات العالم كله التي يجري البحث عنها عبر الأقمار الاصطناعية، واستخدام أجهزة الاستقبال ممنوع ولكنه يعامل من جهة أخرى بالتسامح، كما هي الحال في كثير من الأمور في إيران.

لنعد إلى الطرف الآخر من المخيلة، لنروي قصة عمال التنظيفات في طهران في اليوم التالي لزلزال مدينة بام، نسارع إلى القول إن هؤلاء العمال ودودون غاية الود ويؤدون عملاً شاقاً حيث يقوم كل منهم بتنظيف الشارع الموكل إليه حتى نهايته، وحتى في أيام العطل والأعياد، وهذا ما يجعل في نهاية الأمر من مدينة قبيحة جداً حيث يتخلص سكانها مع حركتهم الصباحية الأولى من الورق وأوعية البلاستيك وأعقاب السجائر فيحيلونها في نهاية الأمر إلى مدينة جميلة معتنى بها بشكل جيد.

وقد أثار خبر الزلزال في 26 كانون الأول 2003 والذي وقع في الساعة الخامسة صباحاً وأدى في اثنتي عشر دقيقة إلى موت ثلاثين ألف إنسان وهم نيام،أثار مشاعر عميقة في إيران وفي كل أنحاء العالم، واستنفر سكان طهران فورا، كما في كل مكان آخر، لجمع الأموال والملابس والأدوية والأغذية، وتوصل عمال التنظيفات في طهران وهم يبحثون عن دور لهم طالما أنهم لا يستطيعون تقديم ولو جزء بسيط من رواتبهم الضعيفة جداً إلى نتيجة أن شوارع المدينة المنكوبة، حتى ولو كانت مدمرة تستحق أن تكون نظيفة طالما أن عدداً من الناجين تابعوا سكناهم تحت الخيام بين الأنقاض، وهكذا توجه ثمانون عاملاً متطوعا فورا مع مكانسهم حيث بدؤوا عملهم بعد ثلاثة أيام من الكارثة تساندهم بعض البلدوزرات، وقد أصبح هؤلاء يمثلون منظمة اسمها، منظفون بلا حدود وهي منظمة غير حكومية، وقد شهد الزوار الأجانب الذي زاروا المدينة بعد ذلك أن شوارع المدينة الشهيدة كانت بنظافة شوارع طهران.

قصة أخيرة لها طابع شخصي أكثر ولكنها لا تبعد كثيراً عن السياسة. كان أحد المسؤولين الكبار في مؤسسة وطنية يستقبلني بشكل منتظم لمتابعة

معالجة موضوع معقد، ومن خلال تعدد اللقاءات عقدت بيننا وبالتدريج أواصر مودة وثقة متبادلة، وقد دخلت مرة إلى مكتبه فوجدته بالقميص فقط وقد خلع سترته، واستقبالك بدون سترة في طهران دليل على وجود تقارب بين المضيف وزائره، إذ إن المعمول به في هذا النظام المتشدد هو ارتداء السترة في كل الظروف الرسمية، وحتى في ساعات الحر الخانق. وعندما حاول أن يمد يده إلى سترته سبقته إلى خلع سترتي وألقيتها على كرسي بجانبي، فتوجه من فوره وأخذها وحملها بعناية وعلقها على المشجب. وقد رجوته ألا يكلف نفسه عناء ذلك فقال: كان والدي حلاقا، وقد عملت معه عندما كنت طفلا، وتعلمت أن سترة الزبون هي شيء مقدس لا يجوز أن تلامس الأرض أبدا، ولأنك صديقي اسمح لي أن أفعل معك نفس الشيء.

ما النتيجة التي نستخلصها من هذه القصص؟ وبالأحرى ما السؤال الذي يطرحه بشكل منتظم كل المراقبون حول هذا العالم الغريب (وبالتالي عن الإيرانيين أنفسهم)؟ فلماذا كل عبارات الترحيب والحفاوة التي يحيطونك بها، ووفق أي معيار هي عبارات صادقة؟.

يمكن أن نترجم طوعا هذا الحذر وهذا الاهتمام في العلاقات الشخصية البينية على أنهما يهدفان إلى السيطرة على التوترات القوية جدا التي تجتاز بشكل دائم الجسد الاجتماعي، كي تعوض عن الكثافة الهشة للمعايير الجماعية المقبولة من كل المجتمع.

ثم، عندما يبذل المرء جهداً كبيراً ليكون ودودا باستمرار مع كل الناس، فلأنه يشعر في دخيلة نفسه أنه وحيد إلى حد ما في مواجهة كل الآخرين، ناهيك عن أن يكون ضد كل الآخرين، والعمل الجماعي ليس

الحصن الذي يلجأ إليه الإيرانيون، وعندما يبرز إلى السطح، فإنه حتى في النزاعات الاجتماعية أو السياسية،يحدث غالبا ما يحدث بشكل غير متوقع وانفجاري وإلى حد بعيد ارتجالي، وعندما تحدث أحد المراقبين الحصيفين عن إيران (وهذا ينطبق أيضا على فرنسا) فقد اعترف: «بأن الشرّين يشكلان ظاهرتين في الحضارات القديمة هما الغيرة والتملق... الغيرة لأنها لا تحتمل أن تتجاوزها حضارة أخرى، والتملق بهدف دفع تلك الحضارة التي تجاوزتها إلى ارتكاب الأخطاء».

إذا قلنا ذلك وبما أن هناك درجات مختلفة للحقيقة، فهناك في نفس الوقت مستوى تكون فيه عبارات الملاطفة والثناء التي تحاط بها والكرم الذي يقدم إليك،إشارات لاندفاع صادق من الممتع أن تتلقاه في اللحظة نفسها على الأقل، ومن الممتع أن ترد عليها بالمثل بأمل أن تؤدي ذات يوم إلى تفتح الثقة والحميمية، وبالإجمال فإن الإسراف في هذه الإشارات التي يجري تبادلها لا بالكلمات فقط، ولكن أيضا بالحركات والإيماءات ـ وضع اليد على القلب، والانحناء، وثلاث قبلات يتبادلها أبناء الجنس الواحد بالطبع ـ قد يعطي شعوراً بالتملق، عندما يخشى كل فرد بلا شك كل الآخرين، فإنه يسعى أن يأنس إلى كل الناس وأن يأنسوا إليه، وكما يقول الصينيون القدامى: «إن البروتوكول هو عطر المودة».

2

صوت الشعب مقابل صوت الله

تميزت الفترتان الرئسيتان للرئيس خاتمي من 1997 حتى2005، ومن قبلها السنون الثمانية لحكم الرئيس رفسنجاني بمواجهات شرسة بين الرجلين الإصلاحيين ـ كل على طريقته وبين المحافظين، ولهذا مال العالم الخارجي لإضفاء رؤيته التقليدية على الحياة السياسية الإيرانية، على أنها ملعب يتواجه فيه فريقان، يساري ويميني، يكسب فيه أحدهما ويخسر الآخر حسب الظروف، ولنتذكر مع ذلك أن المحافظين في إيران يتمتعون بامتياز واضح طالما أنهم هم الذين يضعون قواعد اللعبة، ويترجمونها لمصلحتهم ويصدرون الأحكام التي يشاؤون.

ولكن لنفهم بشكل أفضل ما يجري في محيط السلطة، يحسن بنا أن ننطلق من مجموعة دوائر لها مركز واحد، في المركز هناك عقدة صلبة تمثل كفلاء النظام الإسلامي الذين يتحلقون حول آية الله خامنئي قائد الثورة، وبالتالي فهو الشخصية الأولى في النظام، بين هؤلاء هناك جهاز الباسدران أي الحرس الثوري الذي يضم نخبة سياسية بقدر ما هي عسكرية، وكذلك السلطة القضائية، ومجلس حراس الدستور الاثني عشر وشبكة خطباء الجمعة، الذين يعينهم مرشد الثورة في كل مدينة في إيران وأخيرا الإذاعة والتلفاز الرسميان والمؤسسات الدينية الكبرى.

حتى لو نشأت صراعات نفوذ عنيفة بين هؤلاء جميعا، فإن كل هذه المؤسسات تعرف كيف تتجمع في الوقت المناسب لتقيم جبهة عامة ضد الخطر الخارجي.

والحكومة الإيرانية المؤسسة على النمط الغربي يقودها رئيس الجمهورية سواء كان إصلاحيا كالرئيس خاتمي وبمعنى ما رفسنجاني أو كان محافظا كما هي الحال مع الرئيس الحالي محمود أحمدي نجاد لا تملك الحق أن تعمل بوحي من ذاتها، بالنسبة للنواة الصلبة إلى أشرنا إليها فإن شرعيتها العليا تأتي وبشكل قاطع من السماء، وتبقى آلياتها مختفية تقريبا عن عيون الناس لأن ما هو مهم هو ماهيتها الخفية والتي يجب أن تبقى كذلك.

وهكذا، لا يغادر مرشد الثورة إيران، وعندما كان خاتمي رئيسا للجمهورية توجه قليلا نحو البلاد الأجنبية، لكنه لم ير عمليا الغرب. ويقولون إنه لم يزر مكة أبدا ولم يستقبل قادة أجانب خارج القادة المسلمين، أما قادة المؤسسات الدينية الكبرى فلا يمكن الوصول اليهم، ولا يظهر قادة الحرس الثوري أو السلطة القضائية أمام الملأ إلا نادراً.

تتبع هذه النواة الصلبة هيئة، ولنقل هيئة مزدوجة تتواصل النواة الصلبة عن طريقها مع الخارج، وتشكل هذه الهيئة الحلقة الثانية، وهي مجهزة بكل بهارج الحداثة ومظاهر الديمقراطية: برلمان، رئاسة جمهورية وزراء، إدارات، مؤسسات وطنية، وحتى المنظمات غير الحكومية المسيطر عليها تماماً.

نجد بعد ذلك الحلقة الثالثة ومنها يبدأ العالم الخارجي للنظام، في هذه الحلقة نصادف أولا أولئك الذين يدعمون النظام ـ أي نظام ـ كائنا ما يكون دون أن ينتموا إليه، سواء من أجل ازدهار أعمالهم الشخصية كما هي الحال مع رجال أعمال وتجار وصناعيين، أو بدوافع وطنية مثل الكوادر الإدارية المؤهلة غالبا تأهيلا عاليا والذين لم تعد تغرّهم أوهام الشباب فاختاروا أن يبقوا في إيران، على الرغم من رواتبهم القليلة، وعلى الرغم من كل الصعوبات، بهدف خدمة بلادهم.

وبالإضافة لهذه الحلقة الثالثة نستطيع أن نميز كل الهيئات الاجتماعية الأخرى في البلاد، ونذكر من بينها كيانا مازال شابا، و لكنه أثبت وجوده في المجتمع المدني الذي يتمتع بأهمية كبرى عندما نتكلم عن إيران وهو غير واضح الحدود طالما أنه يضم اللاعبين السياسيين والاجتماعيين الكثر ـ صحفيين، فنانين، مثقفين، حقوقيين ورجال ثقافة موزعين على امتداد المستويات العليا وعلى علاقات دقيقة مع النظام.

وحتى الآن بالكاد نستطيع تمييز غالبية الشعب الإيراني في هذا اللوحة التي رسمناها آ نفا، ولكنه يجب أن نسترجع الذكرى الطيبة لكل الذين ينتظرون دوما تحقيق الوعود التي قطعت لهم خلال ربع قرن منذ فجر الثورة الإسلامية، ولهذا السبب انتخبوا في تموز 2005 لرئاسة الجمهورية رجلا غير منتمٍ تماما، يبدو للوهلة الأولى رجلا قليل الأهمية ولكنه سرعان ما جعل الناس يستشفون جوانب من شخصيته مثيرة للقلق: إنه محمود أحمدي نجاد.

في هذا المخطط الذي عرضته، يمكن لنا أن نترجم المواجهة المستمرة بين الإصلاحيين والمحافظين والتي طبعت الفترتين الرئاسيتين لخاتمي

على أنها تفسير لصراع بين الحلقتين الأولى والثانية، فالحلقة الثانية تعني استقلاليتها لمصلحة الموجة الشعبية التي حملت عام 1997 بطلها إلى سدة رئاسة الجمهورية، والتي اعتبرت إلى وقت قريب أنها تحمل مشروعها الخاص وهو الديمقراطية الشرعية. وكانت الحلقة الأولى تذكّرها بلا انقطاع بوظيفتها الحقيقية والوحيدة، وهي حماية النواة الصلبة في النظام وأن تكون المترجم الأمين لها وذلك لخدمة الشرعية التي هي فعلا شرعية والتي هبطت من السماء.

واليوم، أصبحت الحلقة الثانية نفسها محافظة، وبالتالي فهي من نسيج الحلقة الأولى، ولكن الرئيس الحالي محمود أحمدي نجاد وأصدقاؤه لا يرتدون العمة، وليسوا من جيل رجال الدين الذين صنعوا الثورة، لقد جاؤوا من عالم الحرس الثوري الذي قاتل العراقيين وجماعات الثورة المضادة، وهذا لا يتنافى أنه وأصدقاؤه يبحثون عن دور لهم ليتخلصوا من العبء الثقيل الذي تفرضه على كواهلهم الحلقة الأولى مستفيدين من الشرعية التي كسبوها من صناديق الاقتراع.

يذكرنا المخطط الذي قدمناه بتنظيم السلطة في الديمقراطيات الشعبية الآفلة، وفي نسختها المختزلة، أي النظام الستاليني، لقد اختفى ستالين من الساحة الإيرانية تماما، لكنهم احتاجوا إلى حدثين شجاعين لإجباره على الرحيل عن أرض الوطن الأم وذلك عبر مؤتمري طهران وبوتسدام.

كان النظام الشيوعي ينعم أيضاً بخصائص النظام الديمقراطي: دستور مفصل، برلمان منتخب مباشرة من جميع المواطنين، حكومة مسؤولة أمام البرلمان، ونظام فيدرالي...إلخ. ولكن كل الناس يعلمون أن

ذلك التنظيم ليس إلا الوجه الآخر المعد للتعامل مع العالم الخارجي، أما الأمور الخطيرة فتقرر في مكان آخر بعيد عن كل ذلك، في قلب النظام حيث توجد قيادة الحزب الشيوعي واللجنة المركزية والمكتب السياسي.

إذاً، هل ورثت الثورة الإسلامية النظام الستاليني؟ ليس الأمر كذلك فعلا. وإذا كان النظامان متشابهين فلأنهما قد وجدا في أعماق تاريخهما طرازا مجربا للطغيان الآسيوي حيث تختفي السلطة الحقيقية التي لا يمكن الوصول إليها إلا باجتياز سلسلة من العقبات ورفع حجب متوالية.

من أين جاء هذا التعبير الشائع في إيران: «من خلف الستار»، للحديث عن أشياء وآليات غير مرئية تتحكم بمسرح المشهد السياسي؟ من أين أتت هذه الفكرة الثابتة التي تشترك فيها المنطقة كلها وهي التفتيش باستمرار عند بحث كل قضية، عما يظنونه السبب الأول وهو في الحقيقة الأكثر بعدا عن استنتاجات الحس السليم، ووفق هذه الفكرة يصبح الموساد هو المخطط لاعتداءات 11 أيلول ويصبح طوني بلير الآمر بتنفيذ اعتداءات 2005 في محطات النقل العام في لندن.

في نفس الوقت، إنها حقيقة أن أموراً كثيرة في إيران تجري «من وراء ستار». على هذا الشكل تجري بشكل خاص كل السياسة التي يقودها شخصيا مرشد الثورة دون أن تمر على الحكومة، وفي كثير من الأحيان دون علمها، وعندما يتعلق الأمر بشان خارجي تكون المناورة من مهمات الحرس الثوري، وهذا حقيقي تماما فيما يتعلق بأفغانستان، وواضح جداً في العراق، وصحيح جدا في موضوعي فلسطين ولبنان. إنهم لا يحسبون حسابا لأحد إلا المرشد... وأكثر من ذلك تتطلع الحكومة إلى نتائج

أعمالهم من قراءة الصحف، من الصعب جدا، إذاً، أن نحدد نصيبهم بدقة في ضطرابات المنطقة، ويصعب على الناس تصديق الناطق الرسمي لوزارة الشؤون الخارجية وهو يؤكد بشكل دوري، ويده على قلبه أن إيران لا تقدم للميليشيات الشيعية في العراق، ولمنظمة حماس وحزب الله إلا «دعما معنويا» وعند اللزوم «إنسانيا».

واستنادا لهذا الترتيب المركزي لمناورات السلطة جرى الاحتفال بتنصيب محمد خاتمي في آب 2001 في ولايته الثانية، وقد جرى الاحتفال في الحي الحكومي الذي يشبه مدينة محرمة، ويقع وسط طهران، وقد أدت عدة اعتداءات غامضة استهدفت قادة سياسيين في بداية الثمانينات إلى تحصين المكان، وبتحديد أكثر كان الاحتفال في مسجد هذا الحي، في صحنه الواسع الذي ليس له ما يميزه سوى أنه أشبه بهنغار منه بمكان مقدس.

حضر الاحتفال مئات من الشخصيات والنواب وأعضاء الهيئات الدستورية، تجمعوا وكأنهم في انتظار خطبة الجمعة، متربعين على الأرض المفروشة بالسجاد، وقد خلعوا نعالهم كما يفعلون في كل المساجد، وقبالة هؤلاء المدعوين وعلى منصة عالية جلست الشخصيات الثلاث الأولى في الدولة: علي أكبر هاشمي رفسنجاني (رئيس الجمهورية السابق ورئيس مجمع تشخيص مصلحة النظام والذي أمضى طيلة التسعين دقيقة التي ستغرقها الاحتفال ساكنا بلا حراك وبوجه خال من كل تعبير وكأنه لاعب بوكر من الدرجة الأولى). ثم محمد خاتمي (رئيس الجمهورية المنتهية ولايته والذي جدد انتخابه لولاية ثانية)، وأخيرا علي خامنئي، (الشخصية الأولى في النظام).

في المشهد المذكور شاهدنا عمامتين سوداوين لخاتمي وخامنئي دلالة على تحدرهما من سلالة الرسول ـ من بين عشرات الآلاف الآخرين ـ وعمامة بيضاء هي عمامة رفسنجاني الذي ينحدر من أصول أكثر تواضعا. في وسط المكان وضعت «كنبة» مذهبة من طراز لويس الخامس عشر جلس عليها خامنئي، وإلى جانبيها مسندان مغلفان مريحان، ومسند لكل من الرجلين الآخرين المتربعين فوق سجادة شأنهما في ذلك شأن جميع الحاضرين، وفي الخلف وضع صفان من الكراسي البلاستيكية لأعضاء السلك الدبلوماسي، وهم الوحيدون الذين سمح لهم بعدم خلع نعالهم.

عزف النشيد الوطني، وقرأ العريف على الملأ نتائج الانتخابات وتناول الرئيس خاتمي الكلام واقفا فامتدح ببلاغة عملية الانتخابات العامة والسيادة الشعبية مستعيناً بورقة صغيرة في يده كان بالكاد يستعين بها، وخلال عشرين دقيقة تحدث عن كل شيء وبجزالة كما يعلمون في الجامعات القرآنية.

انتهى الخطاب فأخذ مرشد الثورة بدوره الكلام ولكن دون أن يغادر كرسيه، ودار خطابه المرتجل حول نفس الموضوع، وعلى مدى ثلاثة أرباع الساعة دون أن يذكر ولو لمرة واحدة اسم الخطيب السابق وذلك ليشعر الآخرين أنه هو الرئيس الفعلي، وقد امتدح هو أيضاً سيادة الشعب وتحدث عن الأهمية الكاملة لاحترامها، ولكنه ذكّر أيضاً، ومطولا بأن كل ديمقراطيات العالم تطبق في إطار معين: فبالنسبة للديمقراطيات الشعبية التي عفا عليها الزمن، كانت العقيدة الشيوعية لا تسمح بمخالفتها، كما أن الديمقراطيات الغربية لا تسمح بالتحرر من النظام الرأسمالي، وقال: نحن لا يمكن لنا تصور أن ينتخب شخص ما رئيسا للولايات المتحدة دون أن يتلقى الدعم من رأس المال الكبير.

أما ما يتعلق بالجمهورية الإسلامية فإن إطارها تأسس على القانون الإلهي، وهذا هو السبب في أنها الديمقراطية الأفضل والأكثر كمالا والأكثر صلابة بين الديمقراطيات الأخرى، ولذلك فهي لا تواجه خطر الاضمحلال كما حدث للأنظمة الشيوعية، وسيتمكن شعبها المستنير من أن ينجو من الشرور التي تفتك بالمجتمعات الغربية، حيث الحالات الأكثر انتشارا (الدعارة، والإباحية، والشذوذ الجنسي).

وانتهى «القداس»، ونستطيع أن نجيب أن المكسب الصغير الذي قدمته الديمقراطيات الغربية هو القدرة على انتقادها من الداخل دون مواجهة أخطار كبيرة، بينما ممارسة نفس النقد في إيران تقود إلى السجن، وأحيانا إلى ما هو أسوأ، ولكن الناس كانوا قد فهموا سابقا أن الحكومة الإصلاحية التي ستعود من جديد للقيادة لن تستطيع أن تفعل في السنوات الأربعة القادمة أفضل مما فعلته في السنوات الأربعة الماضية، وهذا ما حصل بالفعل.

ومن المؤكد أن خاتمي لم يرغب إطلاقا خلال فترتي رئاسته الأولى والثانية في الدخول في اختبارات القوة في كل مرة منعوه فيها من التقدم وفي كل مرة سجنوا له أصدقاءه وأغلقوا الصحف المؤيدة له، ولم يحاول مطلقا أن ينشىء تشكيلا سياسيا حقيقيا مستندا إلى التلاحم الجماهيري كي يسانده في مشاريعه، وبهذا المعنى تصرف خاتمي كجزء من النظام الذي كان مخلصاً له حتى النهاية.

ويروون أن علي خامنئي قارن مرة بين رئيسي الجمهورية والذي كان «يسوقهما» من خلال منصبه كمرشد للثورة قائلا عن الأول (رفسنجاني):

عندما أراه لأبحث معه شؤون الدولة، كان يوافقني على كل ما أقول، ولكن ما إن ينتهي الحوار بيننا كان يفعل تماما عكس ما تمنيت منه أن يفعله، وقال عن الثاني، أي (الرئيس خاتمي) «كان يعارض بشدة كل شيء ويناقشني في كل أمر بمنتهى الأناة، ولكنه عندما يدير ظهره، تراه يفعل بالضبط كل ما طلبته منه».

وكان خاتمي المثقف كثيرا والسياسي قليلا موضع انتقاد دائم لغياب شجاعته من قبل أولئك الذين كانوا يأملون بأن يستخدم على الأقل السلاح الوحيد الباقي له، وهو الاستقالة وذلك عندما جعلوه يبتلع ما هو غير مقبول عند النظام، وقد مرت أمامه فرصتان أو ثلاث فرص لكنه لم يستغلها، ولكن إذا كانت تعوزه الشجاعة، فإن ميزته الكبرى أنه أعطى للمجتمع الإيراني فرصة أن يقترب من عتبة الحداثة.

واكتشفت إيران عندما صوتت لخاتمي أن لها هوية جديدة مختلفة تماما عن صورتها التي تعرفها عن نفسها قدمتها لها الثورة الإسلامية لأنها الطاعة، والخضوع لقواعد أصبحت، بقوة أشكال القهر تجبرها أن تأخذ شكل المدينة القرون أوسطية من طراز «مدينة الرب». أما وقد تحررت من هذه المعتقدات الضيقة، داخليا على الأقل فأعتقد أنها لن تكون أسيرتها مرة أخرى.

وأخيرا، كانت خيبة الأمل الشعبية من الإصلاحيين عميقة، وعنيفة، وقد حدث الطلاق عند إجراء الانتخابات البلدية عام 2003 (وهي الثانية من نوعها، أما المرة الأولى فقد دفعت الانتخابات بأغلبية كبيرة للإصلاحيين في مجالس البلديات).

في هذه المرة كان لامتناع 70% من الناخبين عن التصويت نتائج تاريخية، ففي طهران مثلا توجه 12% فقط من الناخبين إلى صناديق الاقتراع، ليعطي هذا الغياب شكل حركة رفض مدني جماعي.. وبفضل هذه اللامبالاة عاد المحافظون ليختطفوا واقعيا المجلس البلدي ويضعوا في منصب محافظ طهران ـ وهو منصب إداري ـ محمود أحمدي نجاد الذي بدأ مسيرته السياسية.

ولكنه، وعلى الرغم من كل شيء، هناك بعد ديمقراطي في هذا النظام حيث يذكر القادة دوما أنه منذ تأسيس الجمهورية، ينظم استفتاء شعبي مرة على الأقل في السنة، سواء تعلق الأمر بالبرلمان، أو بانتخابات الرئيس أو بانتخابات مجلس خبراء حماية النظام الذي يعين مرشد الثورة، أو حتى في الاستفتاءات الدستورية المختلفة.

لهذا لا نستطيع، كما يفعل المراقبون الخارجيون أن نفرق فيما يتعلق بالمسؤولين في النظام بين المنتخبين وغير المنتخبين، فكل مناصب المسؤولية تصدر عن انتخابات عامة سواء كانت انتخابات شعبية مباشرة مثل البرلمان والرئاسة، أو انتخابات على درجتين مثل: انتخاب مرشد الثورة. الذي ينتخب بالتأكيد لفترة غير محددة، هي في الأصل مدى الحياة. ولكن بالمكان في نفس الوقت إعفاؤه إذا جرد من صلاحياته من قبل مجمع خبراء حماية النظام الذي كان قد أنتخبه.

هناك آخرون يجري تعيينهم من قبل هيئات منتخبة أصلا مثل الأشخاص الاثني عشر في مجلس حراس الدستور، الذي يشبه المجلس الدستوري، وقد قرأنا في الصحافة الغربية الكثير بأن «هذه الهيئة غير

المنتخبة تتدخل في العمليات الانتخابية»، وهذا صحيح تماما، ولكنه بعد كل ذلك هو إجراء صحيح أيضا بالنسبة للمحكمة العليا الأمريكية التي يسمى أعضاؤها مدى الحياة من قبل الرئيس وحده وقد لعبت دوراً حاسما في انتخابات بوش للدورة الأولى.

ومن المفهوم تماما أن تنظيم الانتخابات الوطنية يعطي فرصة لكل أنواع التلاعب وخاصة من جانب مجمع حفظ الدستور المؤلف من عشرة من علماء الدين ومن عشرة من الحقوقيين الاخصصايين، وإحدى أهم مهمات هذا المجلس هي اختيار المرشحين وفق معايير يلعب فيها التدين العام والأخلاق الشخصية دوراً كبيراً، وتصدر قرارات هذا المجمع استنادا إلى معلومات شبكة من المخبرين المكلفين بالتدقيق في حياة المرشحين، وهي قرارات نهائية ولا تقبل استئنافا.

وهذا ما حدث في الانتخابات التشريعية الأخيرة لعام 2003 إذ استبعد أكثر من ألفي مرشح، وبذلك خرج من الحلبة القسم الأكبر من النواب الإصلاحيين. ترى ماذا فعل هؤلاء؟ هل أدينوا بالزندقة؟ هل شربوا الخمر؟ هل مارسوا التجديف؟... إنه لغز. ولقد تمنى مرشد الثورة على المجمع المذكور إنقاذ بعض المستبعدين، وقد نفذت رغبته فورا، ولكن حتى في هذا، جرى الأمر بسرية تامة.

لكن التعصب أو التحزب عند هؤلاء الأتقياء لم يمنع تماما حدوث المفاجأة الكبرى في الانتخابات الأولى لخاتمي عام 1997، حيث شهدنا مدا مرتفعا في مواجهة المرشح الديني المحافظ الذي اختاره النظام. وكذلك فإن انتخاب البرلمان الإصلاحي عام 2000 لم يكن مبرمجا.

وكذلك كان الرفض الذي تجلى في الاستنكاف عن المشاركة في الانتخابات البلدية عام 2003، كان مفاجأة للجميع مع عدم تجاهل التوجيهات التي كانت تنقل همسا إلى المواطنين، وأخيراً فإن انتخاب المحافظ المتشدد والشخصية الشعبية أحمدي نجاد لرئاسة الجمهورية عام 2005 لم تكن أيضاً منتظرة.

وفي الواقع، لم يكن أحمدي نجاد هو الشخصية المفضلة لدى مرشد الثورة الذي قرر أن يدعم شخصا آخر، فقبل بضعة أيام من الدورة الانتخابية الأولى شعرت النواة الصلبة في النظام بخيبة أمل من الحملة التي صاحبت المرشح الذي اختير أولا، فقررت أن تستبدل فرسها، لذلك وضعت كل ثقلها وراء هذا اللامنتمي الذي لم يسبق له أبدا أن تقدم للانتخابات والذي لم يظهر إلا وسائل قليلة جدا ليقود حملته الانتخابية.

وهكذا برز أحمدي نجاد في الجولة الثانية، ولكنه بقي غير مفضل طالما أنه يتنافس مع شخصية رفسنجاني الطاغية، والذي سبق وأن أصبح رئيسا للجمهورية مرتين، وهو شخصية أساسية في النظام ويملك الوسائل اللازمة وأشكالا هامة من الدعم، وقد نظم أحمدي نجاد استراتيجيته على «القطيعة» وقدم نفسه كمرشح للفقراء المهمين وضحايا الفساد والنخب المهملة وداعيا للعودة إلى صفاء أفكار الثورة الإسلامية، وكانت فقاعة شعبيته تكبر ساعة بعد ساعة خلال الأسبوع الذي فصل بين الجولتين، وكانت النتيجة الأخيرة نجاحه بفارق ستة ملايين صوت عن منافسه رفسنجاني مفاجئا بذلك كل المراقبين والإيرانيين بشكل خاص.

نورد كل ذلك كي نقول إنه إن كان هناك مفاجأة في الانتخابات فلأن هناك ديمقراطية (لأنه لا مفاجآت انتخابية في أوروبا الشرقية أو عند

صدام حسين). وإيران وبمناسبة الانتخابات الوطنية وعلى الرغم من كل أشكال التلاعب في الانتخابات، أهل لاحتمال المفاجآت المختلفة وتحمل النفحات الحقيقية من الحياة الديمقراطية، وبالتأكيد، ما إن مرت اللحظات العصيبة، حتى عادت الألعاب السياسية المعتادة تطفو على السطح، ولكن هذه الظاهرة ليست إيرانية خالصة.

تناقض أخير، ربما: تظهر الثورة الإسلامية، مع الجيل الجديد الذي أفرزته الانتخابات والذي يمثل انتكاسة إلى الخلف، تظهر كثورة حقيقية لها صورة الثورة الفرنسية أو الثورة السوفيتية وبنفس دورات التشنج ونفس الأهوال، ونفس المجازر، ونفس الإرهاب، ونفس طرق إثارة الحماس لمقاومة الغزاة، أو لنقل شعلة الأفكار الجديدة للعالم بأسره، وكان الاستيلاء على السفارة الأمريكية يشابه الاستيلاء على الباستيل أو قصر القيصر الصيفي.

هناك أيضاً مرحلة الخروج من الازمة، أو الفترة التورميدورية[1]. ففترة حكم رفسنجاني بما أحاط بها من فساد وعودة المهاجرين تذكرنا بفترة حكم المديرين في فرنسا، وانطلاقا من تلك الفترة اختلطت الأمور. والرئيس خاتمي لا يشبه بأي حال أي رئيس آخر ومن المبكر أن نقول أي علامات سيتركها أحمدي نجاد؟ وحتى الآن مازال يتحرك واضعا الرأي العام الغربي خلف ظهره، محققا بذلك شعبية سهلة في إيران وفي العالم العربي الإسلامي على حد سواء، أما في الداخل فلم يتبدل حتى الآن أي

(1) إشارة إلى الفترة التي سقط فيها روبسبيير في شهر تورميدور من السنة الثانية من الثورة. وتورميدور هو الشهر الحادي عشر من الثورة الفرنسية وأعدم روبسبيير على المقصلة في تموز 1794.

شيء، فالاقتصاد ما زال ضعيفا والتضخم يزداد أكثر فأكثر، ولا تظهر أبدا بشائر الإصلاحات التي قطعت للناس، والقيود تشتد في كل الميادين على المثقفين والمبدعين الذين يأبون الخضوع للرقابة السياسية والأخلاقية الخانقة التي ما زال المحافظون يمارسونها.

ومهما حدث سنحتفظ بذكرى الانتخابات الإيرانية المنظمة بشكل جيد وقوي وقد طبعت بكل العزة اللازمة، وبمراكز التصويت بجوها الهادئ الوديع حيث يقدم المسؤولون عن تطبيق النظام الحلوى للزائرين.

3

جبال ومعجزات

تعتبر إيران من أجمل بلاد العالم، ولكنها تتصف بملامح قاسية، وهي في الأصل غور بحري عميق أدى ضغط شبه الجزيرة العربية على قارة آسيا إلى دفعه إلى الأعلى ليشكل هضبة عالية تكسرت إلى ثلاث سلاسل جبلية. والسلسة الأهم من بين السلاسل الثلاث هي جبال البورز تتوجها قمة دامافإند وهي عبارة عن بركان خامد أساسا، إنما تصدر عنه أعمدة دخانية تنطلق من مخروط تام على شاكلة فوجي ياما، وهذا الجبل المقدس في المخيلة الإيرانية يشكل الأرضية التي صيغت فوقها الأسطورة العظيمة عن تشكل «الجنس الإيراني»، والمعروفة باسم كتاب الملوك، كما أنها المكان الذي يسكنه سيمورج، وهو عصفور أسطوري كانت تبحث عنه مجموعة من الطيور أمضاها الحب فشكل كل ذلك لحمة لواحدة من أجمل الحكايا الأسطورية في كل زمان، وهي حكاية مؤتمر العصافير التي امتدحها أرغون[1] في روايته مجنون ألسا.

أنا أتكلم هنا بلغة العصافير

التي رأيتها أثناء ترحالي

(1) أراغون: (1897-1982) روائي وشاعر فرنسي زعيم الحركة الادبية الفرنسية الدادائية والسوريالية، شارك في المقاومة الفرنسية ضد المحتل الألماني. له رواية بعنوان مجنون ألسا (المترجم).

وهي ترسم في الفضاء صفوفا من المقصات

كي تفصل الغيوم

وتحليقها يبدو وكأنها تعبر السماء

وهي تفتق التنورة

نحو بلاد لا تدركها العيون

يقودها الهدهد الذي ذهب يدعو ملكة سبأ

بجمالها وحلو حديثها

إلى بلاد بعيدة، هناك

حيث تعيش الملائكة

وهناك أيضاً، عند سفح دامافاند كان يحل كل عام، الملوك القاجاريون في القرن التاسع عشر مع بلاطهم الذي كان يؤلف قرية واسعة من التوال هربا من الحر واندفاعات الكوليرا في طهران، وكي يغوصوا من جديد في أعماق ماضيهم البدوي، وكان السفراء يتبعونهم على ظهور البغال ليقيموا متقاربين في قرى صغيرة مجاورة.

وإلى سفوح هذا الجبل تتجه دوما في الفصل الحار قطعان الغنم والماعز الكبيرة يقودها الرعاة مع عائلاتهم صاعدين السهول كي يقضوا بضعة شهور تحت الخيام.

وإلى هذا المكان يأتي الإيرانيون وكأنهم صدى بعيد لملوكهم ما بين شهري أيار وأيلول في عطلة نهاية الأسبوع لينالوا قسطا من الاسترخاء.

وفي بعض أيام الجمع في العام وعلى الطرق الضيقة التي تؤدي إلى الجبل يختلط طوفان سيارات المتنزهين مع طوفان قطعان الغنم المتوجهة إلى الجبال، ويتأمل الطهرانيون الذين لم يعد يثير أعصابهم اختناقات المرور اليومية، طوفان الأغنام المتواصل حيث تندس الأغنام بين جنبات السيارات والرفارف التي تتلقى بين الحين والحين ضربة من قرن تيس كبير أو أخرى بسبب تعثر حمار ينوء بحمله، كما أن هناك بعض الكلاب التي لا تعير كبير انتباه للقطعان وتتصرف كأنها مدعوة وليست كلاب حراسة.

ومع اقتراب الصيف تكتسي جنبات الجبل وسفوحه بغطاء من نبات الخشخاش البري الذي تبدأ أزهاره الحمراء الفاقعة بالتفتح في منتصف حزيران وكأنها فراشات تخرج من شرانقها، وفي نهاية حزيران، تسقط بدورها أوراق الزهور، وينتهي فصل الإزهار الذي يدوم أسبوعين فقط. وتتحول السفوح التي كانت تغطيها الحمرة إلى بساط أخضر، وتتراجع الثلوج الدائمة إلى أماكن أكثر ارتفاعا، ويعتقد المرء أنه كان يتنزه في الفردوس.

وتبدو جبال البورز بكاملها وكأنها فردوس فسيح، مع أنه ليس جميلا جدا أن تسكن قراه الأكثر ارتفاعا والتي تنقطع عن العالم لأسابيع عديدة بسبب الثلج، ناهيك عن امتداد العزلة شهوراً عديدة، ومن الجانب الشمالي ينحدر الجبل بشدة نحو بحر قزوين الذي يفصله عنه شريط سهلي ضيق، وهذه المنطقة تعتبر أحدى المناطق النادرة في إيران الغنية بالخضرة والمشبعة بالماء بفضل الغيوم الكثيفة التي تتشكل فوق البحر والتي تتحرك لتصطدم بسفوح جبال الماسيف، وهنا نلتقي بأشجار ونباتات المناطق المعتدلة، والغابات الكثيفة والمفروشة بالمروج، ولكن أيضا مزارع الشاي ومساحات شاسعة من حقول الأرز التي تزرع بنفس الطريقة

التي يزرع فيها في كل مكان في آسيا: الفلاحة في الطين، وصفوف من النساء المنهكات من نقل الغراس.

لاشيء هنا يشبه بقية البلاد التي تتصف بالطابع الصحراوي للشرق الأوسط. وهذا التناقض بين هذا المكان وبقية البلاد التي تعتبر من المناطق القاحلة أو نصف القاحلة جعل من شواطىء بحر قزوين المكان المفضل لقضاء عطل الصيف، وهو حصراً المكان المفضل لدى الطهرانيين فهم لا يفكرون بأي مكان آخر، إنه مكان إقامتهم الثاني، رغم أن كثافة المصطافين قد شوهت منظر الشواطىء الرائع. هناك يلعبون الورق، ويدخنون، ويشربون، ويشاهدون التلفاز، وفيها يتساقط المطر تقريبا طول الوقت. ويستطيع المصطافون في هذه الأجواء الرخية أن يتصوروا أنفسهم خلال 48 ساعة أنهم بعيدين عن إيران، بعيدين عن الإسلام وأنهم في مكان ما من ديفونشاير أو النورماندي، قبل أن يعودوا إلى هذا الجو الخانق في طهران، إنهم يعودون وقد اغتسلت أرواحهم من الانتماء المتطرف للبلاد و الذي تخلصوا منه خلال العطلة.

ومع هذا النوع من المناخ، وهذه الموارد، كان هذا الشريط الساحلي ولفترة طويلة مصدر الغنى الرئيسي لإيران: فمن يمتلك هذا الشريط الخصب يملك البلاد كلها، وقد وصل مؤسسو الإمبراطوريات الثلاث في العصر الحديث وهم الصفويون والقاجاريون والبهلويون، إلى شواطئ قزوين، ومن هناك كان يتسرب أيضا النفوذ الأوروبي، وفي كل الأحوال نفوذ الدولة نصف الأوروبية وأعني بها روسيا، التي كانت أساطيلها تقوم في القرن التاسع عشر بملاحقة القراصنة، فتجتاز جيوشها القوقاز لتقضم الضفاف، وكان عملاؤها يشجعون النزعات المحلية على الاستقلال. لقد حققت بالفعل السيطرة الكاملة على المنطقة.

وتجد كل هذه المعلومات في رواية تينيانوف المدهشة: (موت الوزير مختار)، حيث يحكي عن مغامرات الدبلوماسي الشاعر غريبوادوف في بلاد فارس ونهايته المأساوية. وكان غريبوادوف صديقا لبوشكين وقتل نتيجة دسائس سوداء حيكت له في القصر من قبل دهماء طهران: وهي الرواية التي قال عنها أراغون (أراغون مرة أخرى) إنه كان يحب أن يكون هو كاتب الصفحات المئة الأخيرة و التي تحبس الأنفاس.

علينا الآن أن نترك البحر الرمادي والخضرة الفاقعة لمزارع الأرز وخضرة الغابات القاتمة ونغادر قاصدين قمة جبال البورز، وعند الاقتراب من ذروة الجبل يتبدل كل شيء في عشرين دقيقة، فالخضرة تختفي، وتحل محلها الصخور، وتمتد الأرض الجدباء بين شجيرات تختفي شيئا فشيئا كما تقصر قامتها بالتدريج، وقد مالت إلى اليباس أكثر فأكثر، وتتخفف السماء من كل الأبخرة التي حملها إليه البحر و تتحول إلى زرقة صافية. وبالكاد يمكننا أن نشاهد فوق منحدر ما شجرة معزولة متعلقة قررت أن تصارع للبقاء.

وبين الصخور والرمال، حيث تبتعد المشاهد شيئا فشيئا، وعند سفوح المنحدرات، ستقع عيناك عند بعض الصدوع الجيولوجية التي تنبجس منها بعض الينابيع، على قريتين أو ثلاث بنيت من نفس التربة المحلية وعلى مزارعها الصغيرة التي يصلها الفلاحون بصعوبة ويفلحونها بصعوبة، كما سترى هنا وهناك قبة زرقاء لمسجد، أو بقايا سور مجهز بفتحات، وبعض البساتين، وبعض صفوف أشجار الحور، وعلى مسافة من ذلك كله بعض تجمعات الأغنام، مشهد يذكرك بالحكايات والأساطير فكل شيء معد للقاءات بين ملوك وراعيات حسناوات حيث يعبر السماء بعض الملائكة يحملون رسائل الحب.

داخل هذه القرى نرى الرتابة والضخامة في إطار من البساطة، وهما العنصران الموجودان لأكثر من ألفي سنة في المعمار الإيراني.

في البداية هناك الدائرة تقوم فوق المربع، وهو طراز وحيد للأبنية الأكثر تواضعا ـ ملاجىء الرعاة وقبور الأولياء المحليين ـ حيث تشاركها في ذلك طرز الأبنية الأكثر اتساعا ـ والمزارع الكبرى والحظائر أو المساجد.

انحدر هذا الطراز بلا شك من طراز معابد الساسانيين في فجر الحقبة المسيحية: أربعة أعمدة ضخمة ترفع فوقها قبة نصف أسطوانية وفي وسط الصرح يقوم الموقد الذي تشتعل فيه النار الأبدية، لعل هذا الطراز يقتبس معناه الأسطوري الغامض من لقاء السماء الدائرية كما يعرف كل منا، بالأرض المربعة (وهذا ما يفسر أن الحقول تكون عادة مربعة وأن هناك أربع جهات أساسية)، وربما هذا ما دفع حكماء الصين القدامى ليعبروا عن دورهم في الربط بين الأرض والسماء إلى استخدام قبعات دائرية

وأحذية مربعة، هذه البنية تقدم ـ كما يقولون ـ مقاومة للهزات الأرضية أفضل من الأبنية ذات السقوف البسيطة المسطحة.

وقد تبنى الإسلام فيما بعد هذا الشكل (وكذلك بيزنطة التي قادها اقترابها شيئا فشيئا من الأسلوب الروماني إلى القديس بطرس في روما، لكن هذه قصة أخرى) وارتقي به وجعله أكثر رشاقة، ولعب بمهارة لربط الزاوية القائمة، عند كل قرنة، والصاعدة من الأرض بجزء الدائرة النازل من السماء، وكذلك تخلصت القبة من شكلها البدائي المدبب وكأنها الزجاج المنفوخ، فأضيف إليها طبقتان مسلحتان يغلفانها لحمايتها ولتستطيع أن تقاوم أكثر، كما لعبتا دوراً تزيينيا إضافيا وكانت إحدى الطبقتين داخلية والأخرى خارجية تنتهي بتكوين يشبه البصلة من القيشاني، وتغطى الطبقتان بالقيشاني بأشكال حلزونية نباتية وكتابية: شكل الأرض منقوشة في السماء وألوان السماء تهبط نحو الأرض وهكذا يتحقق لقاء العالمين.

أما القسم الآخر فهو الرواق، وهو مكان متوسط الحجم يقع بين القسم الداخلي والخارج ليشكل بذلك ممراً بين عالمين هما في آن واحد متناقضان ومتكاملان، إنما هذه المرة على المستوى الأفقي: المجتمع الخارجي والحميمية العائلية، إنه مكان انتقال رمزي ووظيفي أيضاً: ففيه تتأقلم العين بين الخارج بضوئه المبهر غالبا والداخل المعتم تنيره فقط فتحات ضوء ضيقة، واستمراراً لهذه الأقلمة الموروثة من الماضي ما زال الناس فعليا حتى الآن يسمحون لقليل من نور النهار أن يدخل الغرف حتى في البيوت والشقق الحديثة.

واختصر الرواق في البيوت الأكثر تواضعا إلى دعامتين مربعتي الشكل من الخشب ترفعان رفرفا فوق الباب، وعند استخدام عدد أكبر من الأعمدة يحصلون على نوع من الشرفة الصغيرة، أما الحالة الثالثة فهي استخدامهم لعدد أكبر من الأعمدة إنما هذه المرة من الحجر، وأكثر ارتفاعا من سابقتها واسطوانية الشكل فيصبح لدينا «الأبادانا في بيرسيبولي»[1] وهي صالة كبيرة تزينها أعمدة اسطوانية تفضي إلى أجنحة الملك داريوس، وصالة الانتظار الكبرى التي ينتظر فيها النبلاء ورجال البلاط لمقابلة مليكهم، ترى هل أقام هناك الإسكندر وليمته قبل أن يضرم النار في المكان؟ ربما. يكون ذلك صحيحا إذا اعتقدنا أن آثار الحريق البادية في المكان تعود إلى زمن الإسكندر : فسقف الخشب وسجاد الجدران المعلق على الأعمدة وكأنه فعلا واقيات شمس استجابت سريعا لاندلاع النيران.

بعد ألف عام من هذا الحدث التاريخي، أصبح الرواق يصنع من خشب الأرز، واتصف بالضخامة ولكنه أصبح أكثر قربا من السلّم الإنساني، ويوجد في أصفهان سرادق يسمى سرادق لأربعين عمودا (وهي في الحقيقة عشرون، أما العشرون الأخرى فهي ليست أكثر من ظل العشرين الأولى انعكس في حوض الماء أمامها). وفي ذلك السرادق كان الشاه يستقبل الحكام الأجانب، وهناك أخيراً القصر الملكي الذي يطل على الميدان الكبير في المدينة تعلوه شرفة كبيرة مسقوفة أيضاً من خشب

---

(1) هي صالة العرش لدى الملوك الأخميديين، في بيرسيبولي وهي إحدى عواصم الإمبراطورية الأخميدية أسسها داريوس الاول (486-521 ق.م.) أحرقت عام 330 قبل الميلاد وهي غنية بالآثار.

الأرز الملون حيث يخرج الشاه إليها من جناحه بغية تأمل الحشود البشرية ويستعرض مواكب جيشه، وألعاب الفرسان، والقباب والمآذن التي ترتفع فوق المساجد.

وبعد مئة عام من ذلك الحدث، وفي حكم الملوك القاجاريين كان الملك يقف تحت رفرف يرتفع بضع درجات وينصبون أمامه عندما يشاؤون ستارة وفق التقاليد المتبعة لظهور الملك أيام الأعياد، جالسا متربعا فوق «سرير ـ عرش» ضخم من الرخام مرصع بالجواهر، تحيط به عائلته والحلقة الأولى في البلاط، ليطلّ على حديقة يتجمع فيها ممثلو الجيش والأجهزة الرسمية ورجال البازار وربما بعض أفراد الشعب، وهو تقريبا نفس تقاليد «الداربار» الهندي[1] التي أخذت أهميتها زمن ملوك الموغول وتجدد استخدامها من قبل الإنكليز زمن إمبراطورية الهند.

ولكن فكرة الرفرف الأمامي كمكان للانتقال بين الداخل والخارج عرفت في الحقيقة مصيرا آخر، أخذ رفرف مبنى من الحجر أو الآجر ـ ولكنه مقبب هذه المرة ـ يتقدم البناء الرئيسي ويمنحه إطلالته على الخارج، وقد استخدم الساسانيون هذا الطراز في كل قصورهم، ثم أحياها الإسلام أيضا ملطفا إياها بتحويلها إلى قوس قوطي، فقدم لنا بذلك الإيوان الفسيح الذي يمتد على الجوانب الأربعة للساحة الداخلية في الجوامع الإيرانية الكبيرة، وكان يكتفى بتزيين القسم الأكبر من الإفريز دون أن ينفتح على شيء ولا يقدم أي خدمة أخرى سوى أنه مكان للقيلولة.

(1) حركة الداربار هي انتقال موسمي لحكومة جامو وكشمير الهندية صيفا إلى العاصمة الصيفية سيرناجار وشتاء إلى العاصمة الشتوية جامو. (المترجم).

وكي نذهب إلى نهاية الروح الوظيفية للفسحة في العمران الإيراني، يجب علينا أن نشير أيضاً إلى عنصرين آخرين أساسيين هما حوض الماء والسور.

بالنسبة لحوض الماء، يسيل الماء غالبا من الجبل عبر قناة طويلة تحت الأرض، ويشير الحوض المائي إلى استمرار الحياة طالما أن كل شيء يتركز حوله، كما أنه المساحة التي تنعكس عليها السماء وكل الأشياء التي ترتفع في الفضاء (الأعمدة، أشجار السرو، سرادق الموسيقى)، وهو المكان الذي ترده العصافير لتشرب، ويوجد حوض الماء بين مكان وآخر في الساحات العامة، ولكن مكانه الحقيقي هو الساحات الخاصة: فناءات منزل السيد ثم الحدائق الفارسية التي تشكل القلب الذي لا مفر منه، وعندما نقول القلب فهذا يعني أنه يضم على الأقل قناة واحدة منظمة كي تدفع الماء في رشقات متلاحقة أو على شكل شلالات صغيرة، ويضم هذا القلب أحيانا أقنية عديدة وأحواضا ثانوية للاستفادة قدر الإمكان من انحدار الأرض. وفي الواقع، يتركزقسم هام من السكان في سهول السفوح الممتدة بين الجبل والصحراء، ونرى ذلك بشكل خاص في طهران.

واجتماع العناصر الثلاثة التي أشرنا إليها وهي بناء الدائرة فوق المربع، والرواق، والحوض يخلق فردوسا صغيراً، وكي يجعلوا هذا الفردوس دائما لابد من إضافة عامل رابع، وهو السور. والهدف الأول من السور هو إبعاد الحيوانات الضارة، ولهذا السبب تسوّر العديد من الحقول الصغيرة بحائط منخفض، وتسور البساتين البسيطة بحائط مرتفع، وهذا يكفل إيجاد مدى جغرافي يتمتع بالحماية، ويسمح بالاحتفاظ بالماء النادر بشكل أفضل. كما يمكن بواسطة هذا السور السيطرة على الحشرات والقوارض كما يمنع قطعان الغنم والماعز الشرهة عن التهام المزروعات.

وحتى القرن العشرين، كانت قرى بكاملها تحيط نفسها بسور لحمايتها حيث يعطيها حتى اليوم شكل حصن صغير، وعلى الرغم من تواضع هذا السور إلا أنه كان يضعف من جرأة العصابات وجماعات السلب والنهب وخاطفي النساء والأطفال: فهنا قبيلة عربية، وهناك قبيلة تركمانية ناهيك عن الفرس الآخرين.

وقد عانى الآثاريون الفرنسيون في بداية أعمال التنقيب التي قاموا بها لاستكشاف مدينة سوس[1]، من تعديات اللصوص، وكثيراً ما كانوا من ضحاياهم. وقد انتهى بهم الأمر لحماية أنفسهم إلى بناء ما يشبه القصر القرن وسطي عند موقع التنقيب، وما زال هذا القصر (الذي بني جزء منه بالآجر الأخميدي) يثير حتى اليوم إعجاب الزائرين بقدر ما يثيره قصر داريوس.

أما الخانات فلها مدخل واحد، وقد بنيت أيضا على طراز القصر الحصن، ويضم البيت الفارسي التقليدي فناء أو عدة فناءات داخلية ويحميه جدار عال أصم أي بدون فتحات، ولا يمكن النفاذ إلى البيت إلا من مدخل واحد يفضي إلى الخارج عبر باب ضيق، ولكنه ينفتح على الداخل عبر عدة أبواب داخلية يفضي كل باب منها إلى قسم معين في البيت: جناح السيد، قسم الحريم، والقسم العام، أما بالنسبة للحديقة فهي بالضرورة مكان مغلق، وهي الطريقة الوحيدة لحمايتها من محيطها المجدب، وفي الحديقة يتركز الماء وتزينها النباتات الخضراء، والظل، وفيها تزرع الورود وتتفتح الأزهار، وترفرف العصافير وفيها يطير الفراش.

(1) سوس: أو شوش مدينة في خوزستان عاصمة عيلام دمرها هانيبعل آشور سنة 646 ق.م. جعل منها داريوس الأول عاصمة للأخميديين، فتحها العرب وازدهرت في عهدهم، عثر بين انقاضها على تيجان أعمدة ونقوش وتماثيل ومصوغات.

في تلك الحديقة تجد نفسك فعلاً في الفردوس، ولكن الكلمة تعني لدى اليونانيين أرضاً مسوّرة واسعة مجهزة لمسراتهم التي كان يقدمها لهم الأخميديون، ثم الساسانيون، وكانت واسعة جداً لدرجة أنه كان بامكانهم إطلاق الحيوانات البرية فيها ثم مطاردتها على الجياد بغية اصطيادها على أنغام الموسيقى، وهذا ما يمكن أن تراه في التضاريس الصخرية الواطئة في طاق بستان القريبة من كرمنشاه[1].

وبالتأكيد ما سأقوم بوصفه يعكس نوعا من علم الظاهر الموروث من فن العمارة الإيرانية، لكن الحقيقة هي بالتأكيد أكثر تشوشا واضطرابا. ففي الريف إلى جانب تلك البيوت التي تحدثت عنها سابقا، تجد مبان إسمنتية تتصف بالقبح، حيث نغطي جدرانها إعلانات الشامبو ومواد الاستحمام وزيوت السيارات، وقد تلاشت او كادت الحدائق الفارسية الجميلة، ما عدا استثناءات قليلة - أو أنها في حالة يرثى لها، والفردوس الوحيد الباقي والذي مازال واقفا على قدميه يبعد ستين كيلومتراً عن طهران ومازال سوره قائما على امتداد خمسة أو ستة كيلومترات ويضم داخله زراعات سبخية وفي جزء منها مزروعات البيوت البلاستيكية ومخازن الفضلات.

وفي القرن العشرين أيضا اتسعت المدن بشكل استثنائي يرافقها هجرة عشوائية إلى المدن، لقد تجاوزا كل الخطط المدينية (كان هناك العديد منها ولكنها سرعان ما لفها النسيان). أما المواد التي وزعوها في ساحات هذه المدن لتزيينها فهي نصب واقعية اجتماعية من نبات الشمشاد المقصوص على شكل حيوانات متعددة، حمامات السلام التي تشبه في

(1) طاق بستان:فيها بقايا البلاط الساساني وأعمال ري ونقوش تمثل مشاهد الصيد.

حجمها فراخ الدجاج، وأشجار نخيل بلاستيكية مضاءة، كل ذلك من بنات أفكار البلديات المحافظة، أنها بصراحة تدعو للضحك.

و نجد البناء العشوائي يشوه الأعمال الجيدة لا التقليدية منها فقط بل وحتى الأعمال الأكثر حداثة مثل الفيلات الجميلة التي استخدم في تزيينها فن لديكور وتمثل الطراز الحديث في طهران، والتي لم نعد نراها إلا بصعوبة كبيرة، والمساجد الحديثة نسخة مشوهة وقبيحة عن الماضي، ولكن ما هو أسوا حدث غالباً عن طريق الترميمات الكبرى للصروح القديمة والمولة من تجار متدينين أو القيمين الدينيين عليها. لقد أساء ذوق الراعين الجدد لهذه الصروح إلى الأبد لأنها لم تعد إلا ظلا للنسخة الأصلية.

وأخيراً، ننسى كل هذا عندما نقف أمام جمال أصفهان الساحر، ففي المسجد المسمى بمسجد الجمعة حيث تنعكس عشرة قرون من فن العمارة الفارسي بدءا من الصالة الساسانية المقببة (وبالتالي فهي قبل الإسلام) إلى الأعمدة الضخمة (أجواء الناووس الروماني) وانتهاء بالاندفاع المدهش للأقواس القوطية الصفوية، ومرورا بالقبة الشمالية التي بنيت في القرن التاسع عشر ذات الخطوط القاسية واللون القاتم تقريبا ومن الحجم الوسط والتي بالكاد تترك أي انطباع لدى النظرة الأولى، ولكنها تفرض بعد ذلك نفسها بالتدريج على المشاهد وكأنه يقف أمام مغناطيس. وقد اهتم آرثر بوب المؤرخ الكبير للفن الإيراني بهذه القبة بشكل خاص باعتبارها أجمل تجسيد لفن العمارة في إيران لأنها ترمز إلى اكتمال المسألة الفنية المثيرة للقلق وهي تطعيم الدائرة بالمربع وفق تقنية جريئة وجمالية تتحدى الأبدية.

بعد ذلك يأتي القصر الملكي وهو بناء يشغل الأضلاع الأربعة لمستطيل حيث يتألف كل ضلع من أسواق ومحلات تجارية وله فتحة كبرى ترتبط هي نفسها بصرح كبير، ففي الجنوب يقع جامع الشاه الكبير وهو الشقيق الإسلامي الغامض لكاتدرائية تشارتر، وفي الغرب قصر الشاه المشوق بشكل مدهش والذي يطل عليه مسجد بطريقة تلفت الانتباه وكأنها تعبير عن خضوع الزمني للروحي، وفي الشرق مسجد الشاه الخاص، وفي الشمال المدخل الرئيس للبازار. وقد زود المكان بأربعة أواوين، ليأخذ بعد ذلك شكل فناء داخلي لمسجد ضخم، وقد دعاه الشاه بلوحة العالم، لذلك يستطيع المرء أن يحدث نفسه أنه عندما رسم الشاه هذه الصورة لأساطير روسية فلأنه أراد أن يجعل مفهوما أن العالم كله موجود في أعماق المسجد الكبير.

أما العيد فيحتفل به على طول ضفتي نهر أصبهان وفوق جسور النزهة ذات القناطر وحوضه المائي الكبير، وضفتيه المكسوتين بالأشجار الخضراء حيث يتفرق المتنزهون بينها لتحجبهم عن عيون الآخرين، ويشكل مجموع هذه المشاهد الحديقة الفارسية الأكثر جمالا والأكثر اتساعا وتعطي انطباعا أوليا عن الفردوس.

في هذه القمم، وإنما أيضاً في بيوت القرية البسيطة وفي ظل كل العوامل المشتركة التي توحدها، فإن فن العمارة الفارسي البسيط والنبيل في آن واحد مثل المشاهد الطبيعية التي تحيط به، جسد انسجام العالم على المستوى الإنساني، فالمادة الأكثر بساطة، وهي الآجر تشكل له ما يشبه النوتة الموسيقية التي تعزف بتوافق لا ينتهي لتجعلنا نتمايل على أنغام وحدة الإنسان والطبيعة، وتلتقي مثل الموسيقى بالمقدس.

4

مجد البازار

في البازار، يصبح الفرد لا شيء، والمجموع هو كل شيء، فالعائلة التي تمسك بالمحل التجاري تأتي أولا، والاتحاد الذي ينهي الخصومات وينظم العروض، وأيام العيد القادم، يدير في النهاية مجتمع البازار بأكمله: الأبنية الإسمنتية المتتابعة التي تعطي المشهد شكل مساكن النمل الأبيض.

وتأكيدا للوظيفة الثلاثية القديمة الهندوأوروبية والتي سلط عليها النور جورج دوميزيل[1]، فإن البازار ليس بعيدا أبدا عن عاملين آخرين الأول هو(القساوسة ـ الملالي ـ البراهمات) والثاني (المحاربون ـ الحكام ـ الكشاتريا[2]). ويرتبط البازار في أصفهان بالقصر الملكي الكبير بشكل وثيق، إذ يقع بمحاذاته وحتى في مواقع تغلف القصر ومساجد الشاه. وفي طهران تؤدي أزقة البازار مباشرة إلى الفناء الداخلي للجامع الملكي الكبير، ومع الزمن كان يكفي أن تجتاز شارعا كي تمر من الجولستان وهو مكان إقامة الملوك القاجاريين إلى أزقة البازار، وإذا كانت المسافة بين

(1) جورج دوميزيل (1986-1898) فيلسوف فرنسي وعالم لغوي ومؤرخ وباحث في الديانات الهندو — أوروبية. وبرأيه أن كل هذه الديانات تضم في أصولها الأيديولوجية ثلاثة عوامل هي: الطقوس، والأساطير، والتنظيم الاجتماعي، وهو يرى أن كل النشاط الديني في المجتمع ينقسم إلى ثلاث وظائف: الروحية والعسكرية والانتاجية.

(2) الكشاتريا، الطائفة الثانية من الطوائف الأربعة التي تشكل الهند وهي في الأصل طائفة ملكية ومحاربة، في العصر الحديث تحول أبناؤها إلى مهنيين وإداريين وشخصيات عسكرية

المكانين قد اتسعت اليوم فذلك لأن ملوك بهلوي قد قضوا على الساحة المسورة التي أوجدها أسلافهم كي لا يحتفظوا سوى بقلب كتلة البناء: الأجنحة الملكية وصالة التتويج.

مصيبة إضافية أسهمت بالتشويه، فقد سحقت هذه الآثار المعجزة في مشاهدها بأبنية خلفية متواضعة تماما تستخدم كإدارات وستضر بالبناء التاريخي مع مرور الزمن، وعلى بعد رمية حجر من مخرج القصر تقع ـ كانت وما زالت ـ ساحة رغم أنها تعرضت لتشويه كبير تقود إلى المدخل المغطى والأكثر جمالا للبازار، وفي تلك الساحة يصنع الرأي العام، وعندما تسيطر الغوغاء عليها، تجعل الملوك يرتجفون.

ولكن بازار طهران يملك الكثير من المداخل الأخرى في الأضلاع الأربعة التي يشكلها، و يغطي ما يزيد عن أربع كيلومترات مربعة، إنه عالم لا يدخله المرء من حيث المبدأ إلا ماشيا، فالمداخل مزودة بممرات عبور متعرجة لهذا الغرض، و على الرغم من الحجم الكبير لزبائنه فستجده مكانا دائما لتجول الحمالين ودافعي العربات اليدوية.

وهذه العربات، وكلها من طراز واحد، عبارة عن لوح خشبي بسيط وأربع عجلات فوق محور ثابت ومزودة من الخلف بعارضة لدفع العربة، ويعطيها ثبات اتجاه العجلات صعوبة في الاستدارة يمينا أو يساراً، ولتقوم العربة بهذه الاستدارة يجب رفع العجلتين الأماميتين عن الأرض بحيث يضع سائق العربة كل ثقله على العارضة دافعا إياها نحو الأسفل، وبدفعة عنيفة ينقل ثقل العربة إلى العجلتين الخلفيتين فيديروهما حيث يشاء.

لماذا لم يتطور هذا الطراز البدائي؟ ربما لأن ثباته قد ضمن استقامة مسار العربة، وكفل بذلك أيضا ثباتا أكبر بسبب الأوزان التي ينوء بعبئها الحمالون، هذه الأوزان التي تكون أحيانا أكثر من ثقيلة، وتنطلق العربة أحيانا بسرعة كبيرة في أزقة البازار الضيقة، يدفعها حمالون ببناطيل منفوخة، وتجدهم دائما في عجلة من أمرهم (لا شك أنهم يتقاضون أجرا إضافيا على هذه الاستعجال). إنهم يدفعون عربات يصعب إيقافها، وعند اقترابهم من المارة وعند أول نداء يطلقونه يقوم كل رجل وامرأة بسرعة ودون نقاش بإفساح الطريق للعربة المندفعة.

هذه هي العربات الشهيرة في بازار طهران، إلا أنه يمر بين الحين والحين دراجات نارية صغيرة ترفع إلى مسافة ذراع فوق الحواجز المتعرجة عند المداخل لتصبح داخل السوق، كما نشاهد أحيانا سيارات وسيارات شحن صغيرة فتحتل عرض الأزقة، إلا أن هذه السيارات لا تدخل السوق إلا خارج أوقات العمل حيث ترفع الحواجز كي تسمح بدخول البضائع الأكثر ثقلا، ومواد البناء وسيارات الإطفاء وسيارات القمامة.

هذا هو إذاً عالم البازار بمداخله العديدة وحواريه الضيقة ومنعطفاته وساحاته الداخلية التي تكشف عن طوابق عديدة، وخاناته التي تستخدم الآن كمستودعات، وصالاته الفسيحة بقبابها ذات الطابع الأثري الضخمة فهي مغطاة هنا بالخزف المزخرف بينما تكون في مكان آخر جرداء كالحة وكأنها سجن بيرانيز[1] وعند مداخل أحياء معينة نجد أبوابا ضخمة لدرجة أنها تشبه أبواب الحصن (القصر)، ومع ذلك فهي تفتح

(1) بيرانيز اسم سجن كوني، في و رواية ساخرة بقلم الكاتب الإيطالي ميلو منارا (من مواليد 1945).

وتغلق يوميا. ويتميز البازار أيضاً بمساجده الاثني عشر وأماكن الصلاة الأخرى، وحتى بكنيسته، إنها كنيسة صغيرة جداً على الطراز الريفي بساحتها الصغيرة التي تضم بعض القبور لمتوفين إنكليز من التجار او الإداريين، أو إنكليزيات كنّ يرافقنهم، وكذلك قبور أطفال توفوا في المهد في النصف الأول من القرن التاسع عشر.

إنه عالم من الفوضى المنظمة، طالما أنه يتوجب على كل امرئ أن يجد ما يسعى إليه في الأقسام المختلفة للبازار، كل قسم حسب اختصاصه، فبعض هذه الأقسام مخصصة للأقمشة، وبعضها للسجاد، وغيرها للأدوات المنزلية، وحاجات الطلبة، وأدوات المائدة والمطبخ، والسلاسل والأقفال ومكنات الخياطة، والملابس الداخلية والساعات والعطور ولوازم الصلاة والجواهر، والأحذية، ولوازم الممثلين في المسرحيات الدينية: خوذ، أسلحة رياش، وملابس أسد محنط... وماذا أقول! إنه عالم يأتي إليه الناس لأنهم متأكدون تقريبا أنهم سيجدون فيه ما لن يستطيعوا العثور عليه في أي مكان آخر، وقد تطلب شيئا في المدينة فلا تجده فيقول لك تجارها بشيء من الاحترام البادي في نبرة صوتهم: من أجل هذا عليك الذهاب إلى البازار...، وتسأل: «أي بازار؟»، فيجيبونك «البازار الكبير».

وقد جرى تخفيض ساعات عمل البازار، فالحركة لا تدب فيه صباحا إلا نحو الساعة العاشرة، ويبدأ بالإغلاق مساء في الساعة الخامسة وأحيانا قبل ذلك بكثير في ليلة عيد ما، وبهذا تخلو الممرات، ويبدأ إغلاق البوابات الكبيرة لتعزل الأحياء عن بعضها البعض، وتطفأ الأنوار، فيسرع كل امرئ نحو المخرج، وهناك الكثير من الأعياد في إيران: أعياد ميلاد الأئمة وأعياد وفاتهم بما فيهم الإمام الخميني، وذكرى الأحداث المختلفة في

حياة الرسول والمناسبات الوطنية الرسمية للثورة الإسلامية، ولكن وعلى الرغم من أن ساعات فتح الأسواق محددة، إلا أن ساعات العمل وكذلك الأيام طويلة، سواء في نظر من يعمل منهم كالبهائم ـ وهم الحمالون ـ أو لمن هم في وضع معاكس مثل تجار السجاد الذين يقتلهم الملل،جالسين في أعماق محلاتهم يحتسون كأس شاي بعد كأس شاي.

أما قلب البازار في طهران، وجوهره، وسبب وجوده فهو السجاد حيث يحتل سوقه ثلاثة أحياء تشكل مساحتها خمس مساحة البازار، ترى كم عدد قطع السجاد الموجودة في بازار طهران؟ الملايين... كم يبلغ عدد العقد التي تنسج عقدة أو عدد الأزهار المصممة بصبر والتي تحاك على سطوح هذه الكتلة الضخمة من السجاد؟ سوف نحصل على أرقام اللانهائية.

وسواء كانت هذه الأكوام من السجاد مكدسة في الفناءات أو في الأقبية، أو مكومة في محلات من مختلف الأحجام، كبيرة وصغيرة، قديمة وحديثة، وسواء كانت الحياكة قد جرت تحت خيمة أو في مصنع فإنها تنتهي دوما بمشهد التاجر جالسا وراء مكتب خشبي متواضع أصبح لقدمه خارج الزمن، وهاتفه المحمول على أذنه أو في يده، وتطل من فوق رأسه صورة والده المتوفى باللونين الأبيض والأسود، وينتظر السجاد، وصاحب المحل، ووالد صاحب المحل الزبون، إنما يكون الانتظار لطلبات الشراء بالجملة عن طريق هاتف من هامبورغ ونيويورك أو من أماكن أخرى حيث يقيم أخ أو ابن عم رغما عنه ويدير محلا يماثل هذا المحل.

هل تريد صورتك وقد حيكت على سجادة؟ هذا أمر ممكن، وكل ما يلزمك صورة لك تنقل إلى الحاسوب، أم هل ترغب سجادة حيك عليها

لوحة «المشهد» للفنان ليوراندو دافنشي أو لوحة نابوليون في سان برنار أو تمثال النبي موسى فوق صخرته أو أسطورة أستير وماردوخ؟ أم تريد صورة لثلاثة جراء صغيرة جلست في سلة؟ ليس هناك مشكلة، كل ذلك ممكن التنفيذ. أما إذا كنت تملك سجادة لم يبق فيها من السجاد إلا الاسم بل استحالت بالأحرى إلى قطعة من الخيش، شوهتها الثقوب وأكلها العث فصارت ظل سجادة، فالحل هناك، في أعماق زقاق معتم حيث يجلس مقرفصا وسط شلل من خيوط الصوف، عامل مختص بإصلاح السجاد يعمل ليلا ونهارا كي يعيدها لك بعد بضعة أسابيع سجادة رائعة تضمها إلى مجموعتك المختارة وتثير إعجاب الناظرين من زوارك.

لا يوجد في هذا العالم الخاص ما يدعو للعجلة، طالما أن الثروة المتمثلة بالبضائع المخزونة سوف تأتي من ازدياد قيمة هذه البضائع مع مرور الزمن، ويدهش الرجل الأجنبي من غزارة المخزون في إيران بالمقارنة مع إيقاع البيع، ولا تستخدم هنا مواسم التخفيضات، حتى فيما يتعلق بقدم الطراز أو حداثته، ولا تجري أبدا تصفية شاملة بسبب إغلاق مؤقت أو نهائي، وفي حالة وقوع مصيبة يستأنف كل شيء من جديد، وفي حضن العائلة أن كان ذلك ممكنا، حيث تعود دورة كل شيء، وقد تعيش العائلة يوميا على القليل جداً وتدخر ريالا إثر ريال حتى يصبح بالمكان استثمار المبلغ في نفس الفرع التجاري أو في فرع آخر، وخاصة في ميدان العقارات المتنوعة: شقق أو عمارات، لا يهم أن تنام دون عائد عدة سنين، لأنها كالسجاد ستزداد قيمتها مع كل حركة لبندول الساعة.

وفي زمن غير بعيد، إنما قبل الإصلاح الزراعي، كان التجار يشترون الأرض الزراعية، وكان تاجر السجاد يستطيع أن يسيطر على عدة قرى

وأحيانا على «مقاطعة» بكاملها. لقد تدفقت الثروة أخيراً في أعقاب حياة طويلة قضاها في أعماق محله، أصبح التاجر قادرا، بل أصبح من واجبه أن يندفع نحو الأعمال الباقيات: بناء المساجد، تجميل الأماكن العامة، ودون أن ننسى رعاية بعض الملالي وتلامذتهم، والتبرع للمؤسسات الخيرية. ويقوم أخيراً ببناء مسكن يليق به كوجيه من وجهاء المدينة، يضم أربعة أو خمسة أو ستة أو سبعة فناءات داخلية تسمح بالسكنى لأفراد عائلته الذين يمثلون ثلاثة أجيال.

وهذا ما نراه على وجه الخصوص في المدن الكبرى المنتجة للسجاد في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين مثل كاشان ويزد، وفي الحقيقة كل مدينة أخرى من مدن إيران، ويعيش تاجر السجاد حتى ولو كان من مستوى متواضع حياة أرستقراطيي التجارة، وأذكر أن أحدهم قد علم أن السفارة الفرنسية كانت بصدد بيع مبنى صغير في الريف لم يعد لها به حاجة، فكان يسعى إلى شرائه،لكنه توقف عند حد معين في المزاد فخسر الصفقة. قال لي: «أتعرف لمن بعته في النهاية؟ إلى تاجر حبوب في مدينتي، هذا إهانة لشرفي». وارتسمت على وجهه علائم ألم حقيقي.

كل ذلك لن يسمح لي أن أنسى الهند غير البعيدة في كل المقاييس عن هذا المشهد ونظامه الطائفي، فحتى لو غير المرء مهنة آبائه، حتى لو أصبح عالما أو مهندسا أو وزيرا فسيبقى طوال عمره ابن تاجر سجاد، أو ابن رجل أمن أو حتى ابن ملاّ أو ابن عسكري، وكما في الهند تجري الزيجات هنا وفق الطبقات والفئات. وكما في الهند نجد هنا ما أشار إليه المؤرخ لويس دومان من أن أحدا لا يقع خارج الهرم الاجتماعي، فالكل مندمجون فيه إنما على قاعدة تراتبية عتيدة، ويستطيع كل فرد في المجتمع أن يجد مكانه

في هذا الهرم، مكانه الحقيقي بشرط ـ وهذا متفق عليه ـ أن يتمسك به ولا يسعى وراء تعديل سلم الطبقات والقيم.

وكل شيء في البازار متماسك ليشكل كتلة واحدة بدءا من الحمالين وانتهاء بالتجار من أصحاب الملايين، والناس هنا متنافسون ومتضامنون في آن واحد: متنافسون إنما كل فئة داخل سويتها الخاصة بها، ومتضامنون بشكل واضح فيما إذا اعتدي عليهم بشكل جماعي، من قبل موظفي الخزينة مثلا، ومتضامنون من سوية ما تجاه سوية أخرى وفق أحكام الحماية الجماعية، والولاء للتسلسل التراتبي، ولكنهم أيضا متضامنون مقابل ثمن باهظ، فالحمالون يستطيعون الاقتراض من التجار ولكن مقابل أرباح ربوية. وتعقد الصفقات في كل المستويات شفاها، فلا حاجة لأختام ولا أوراق لأن كل امرئ يعرف أن أي انحراف عن الكلمة التي قطعت سوف يؤدي إلى الطرد خارج النظام وهو بالتالي نوع من الموت المدني.

من المستحيل أيضا أن تسرق من البازار ولو دبوسا صغيراً، لقد شاهدت مرة شيطانا صغيراً بائسا يختلس شيئا تافها من المعروضات وسمعت صرخة التاجر، ورأيت زملاءه يندفعون فجأة كسرب من كلاب الحراسة وراء السارق ويمسكون به خلال لحظات ويشبعوه ضربا بالعصي حتى سال دمه وتكوم جثة هامدة على الأرض، وكان من المستحيل التدخل لإنقاذه، وكما قال أحد الذي شاركوا في الحادث الذي لم يتجاوزالدقيقة الواحدة «من الجنون أن يفعل أحد هذا ـ يقصد السرقة ـ في البازار».

لقد تجاوز البازار الكبير حدوده المكانية واجتاز منذ فترة طويلة الجادات الأربعة ذات الزوايا القائمة التي تمثل رسميا محيطه التاريخي. فقد امتد إلى شارع هنا وزقاق هناك، وأحيانا إلى أرض قفراء كان يشغلها باعة الدواجن والطيور الملونة وفراخ الدجاج الصغيرة التي يلونها الباعة بأصباغ خاصة بالأخضر أو الزهر، كما كانت تباع هناك بشكل خاص العصافير المغردة التي يعلق تجار البازار أقفاصها عند مدأ خل محلاتهم.

وبسبب هذه الغزوات المفاجئة امتد البازار في كل أرجاء المدينة على شكل ثآليل هنا وهناك مشكلا بذلك مجموعة من الجزر، وأصبح هناك حي للأحذية، وآخر لملابس الأطفال، أو الأثاث المتعدد الأذواق، واستمرت المحلات ملتصقة الواحد منها بالآخر، بحيث يستطيع المرء أن يرى مثلا ثلاثين دكانا للأحذية النسائية على رصيف واحد من الحي ومثلها على الرصيف المقابل، وإذا ما صعدنا باتجاه شمال المدينة سنلاحظ أن المشاهد الشرقية للبازار تتلاشى بالتدريج ليصبح النموذج الغربي هو السائد حتى ليعتقد المرء أنه في المحلات التجارية أو في مركز تجاري في أوروبا أو أمريكا. أما داخل هذه المحلات فيبقى محتفظا بنفس المشهد فالأخ قد أرسل ليدير المحل الجديد شمالي المدينة، وتراه قد أصبح حسن الهندام، حليق اللحية، مكوي البزة، بينما بقي الشقيق الآخر في أحشاء البازار الكبير ليدير ويحافظ على المحل القديم، ويستطيع الأخوان في كل لحظة أن يتبادلا الموقع فيحل الواحد منهما محل الآخر.

أخيرا، هناك بازار تجار التحف القديمة أو بالأحرى تجار العاديات. ويتجسد هذا البازار في كيانين، هناك في البداية شارع تتفرع منه ممرات

ومحلات داخلية حيث يختلط فيها القديم بالمقلد، والقطع الأثرية الأصيلة بالمزورة والمزيفة، والتي يخرجونها لك ملفوفة بأوراق صحف قديمة أو قطع من قماش الشيفون بعد أن يغلقوا باب المحل حذرا وحيطة، ويقع محل ملك الشارع قبالة السفارة الإنكليزية حيث تستطيع بالكاد ان تأخذ طريقك في دكانه بسبب أكوام البضائع التي تعود لكل العصور أو كما يزعم. يستقبلك البائع محييا، ثم يبدأ خطابه الذي يمهد فيه للصفقة، وذراعاه مرفوعتان للسماء برهانا على صدقه، وهو يوجه إليك عبارات الاحترام الإمبراطوري، ثم يمسح دمعة سالت على خده وهو يشير بإصبعه إلى صورة والده تضيئها ثريا بسبعة أذرع، ثم يصعد درجا ثم يهبط منه، حاملا إليك صورة لولوبريجيدا أثناء زيارتها لمحله يعرضها عليك تأكيداً لهذه الزيارة كما يحدثك عن زيارة الجنرال ديغول للمحل، إنما هذه المرة بدون صورة. ثم يضاعف بحيوية عمر القطعة التي يعرضها عليك مرتين أو ثلاث. ولا تجد عنده شيئا إلا ويعود تاريخه إلى ما قبل الصفويين وعلى وجه الدقة إلى زمن القاجاريين، حتى تلك اللوحة التي رسمت قبل خمسة عشر يوما والتي ما زالت رائحة الزيت تفوح منها تنطبق عليها نفس المواصفات، كما يضاعف مرتين أو ثلاث مرات السعر التجاري لكنوزه ثم يصيح: إنك تذبحه وهو يتنازل لك إلى نصف السعر، وينتهي به الأمر وهو يفرك كفيه أن يبيعك بسعر معقول إلى حد ما، إنه موسى بابا، ملك الغجر.

أما الكيان الآخر، فهو سوق باعة المنوعات، أو سوق الجمعة، ويعقد في موقف واسع للسيارات تحت الأرض يخلو من السيارات في عطلة نهاية الأسبوع، ويتكدس في هذا السوق آلاف الأشخاص في جو خانق بالكاد تستطيع أن تتنفس فيه، ولو حدث أصغر حريق لوقع من جرائه

مئات الوفيات اختناقا او رعبا، وأخيرا وبعد ان تملكها الحس السليم قامت البلدية بنقل هذا السوق إلى موقف آخر أكثر تهوية ما زال يعقد فيه حتى اليوم.

نقطتان تحركان هذا السوق بقوة: زاوية السجاد حيث تستطيع أن تجد كل ما تريد، وبالسعر الذي تريد بدءا من عشرين يورو، وزاوية القماش الأفغاني الذي يمتد على ثلاثة أزقة وحيث تنبسط أمامك مغارة علي بابا: معروضات من الأقمشة ذات ألوان صارخة وقد صنعت بكل الإشكال ولكل الأذواق، ملابس العيد، الشالات، المناشف، وسائد مزينة بقطع من المرايا ويجلس بين هذه الأكوام المكدسة باعة من الأفغان الذين يتجاوزون بواقعية طبيعتهم رغم أن رؤوسهم الوحشية تذكرك بطالبان ولكنهم بالتأكيد ـ وهذا متفق عليه ـ دمثو الأخلاق تماما، في هذه المملكة المسحورة يختفي الحس النقدي ويتساءل المرء وهو يغادر السوق فيما إذا كان يحلم، فقط علبة المشتريات في يدك تؤكد لك أنك كنت هناك.

لقد قلنا في الفصل السابق إن الشاه عباس أراد أن يجعل من أصفهان ومن بلاد فارس ومن العالم مسجداً كبيراً، ولكن الطبيعة الحقيقية لإيران هي بالتأكيد أكثر قربا إلى سوق كبير، وبازار طهران هو منها بمثابة القلب، ولكن روح البازار موجودة في كل مكان، في كل حي، في كل قرية بل وتعشش داخل كل إيراني، كل إيرانية، وهي تطبع كل السلوكيات ، وتصعد من كل زوايا إيران مع العصافير المغردة التي تضفي البهجة على نهارات التجار على امتداد حياتهم الحزينة.